الذيل على الروضتين لأبى شامة

نشره السيد عزت العطار الحسينى

(مكتب نشر الثقافة الإسلامية — القاهرة — ١٩٤٧ م) .

سمعتُ بنشر هذا الكتاب الجليل من ظلمة المخطوطات منذ حين ، وظلت مدة أعتقد أنه لم يصل إلى المكتبات ، وهو فى الواقع تحت بصرى كلما مررت بإحدى تلك المكتبات المعنية بالكتب العربية بالقاهرة . والسبب فى ذلك أن الكتاب نشر بعنوان "تراجم رجال القرنين السادس والسابع" ، وهو غير العنوان الذى اختاره له مؤلفه العظيم ، ولم يشأ الناشر أن يذكر العنوان الأصلى ، وهو " الذيل على الروضتين " إلا فى أحرف صغيرة بين حاصرتين قميئتين ، لا تستبينها العين خلال السطور الأخرى المكتوبة بقلم عريض فى صفحة الغلاف ولست أدرى السبب الذى حدا بالناشر إلى هذا اللون من الإعلان عن كتاب غنىّ بعنوانه الأصلى عن الإعلان ، كما لست أدرى السبب الذى أدى به إلى السماح بعبارة " كتب نادرة ، الثمن جنيه مصرى واحد" ، فى الزاوية اليمنى من أعلى صفحة الغلاف ، مع أن الكتاب يبلغ أكثر من ذلك المبلغ كثيراً ؛ وهذا الأسلوب فى التنبيه ليس لذلك النوع من الكتب على كل حال ، وليس مما يزيد فى رواجه بين الناس .

ولكل من الناشر والمصحح والطابع أوفر الثناء العاطر ، لإنتاج هذا الكتاب وإخراجه إلى عالم المطبوعات فى صورة من الصور ، بعد أن ظل فى عالم المخطوطات كالحلقة المفقودة ، بعيداً عن متناول الباحثين فى التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، إلا الأقلين الذين استطاعوا الاطلاع فى مصر على نسختيه الفوتوغرافيتين المحفوظتين بدار الكتب الملكية بالقاهرة ، أو نسخته الفوتوغرافية الأخرى بمكتبة بلدية الإسكندرية ، ولهذا يكاد الشكر على إنتاج هذا الكتاب مطبوعاً يطغى على ما فى طبعته هذه من مآخذ ثلاثة :

أولها أن الناشر لم يذكر شيئاً عن طريقته فى النشر ، ما عدا ما أورد بالحرد

(colophon) بآخر الكتاب من مقابلته النسختين المحفوظتين بدار الكتب المصرية بالقاهرة بعضهما على بعض ، ومراجعته بعض المواضع فى كتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى . وربما رضى القارئ الناقد بهذه الإشارة العابرة لو أن الكتاب اشتمل على بضع حواش متنية توضح شيئاً من تلك المقابلة وهذه المراجعة ، أو بضع حواش تفسيرية تنير الألفاظ والعبارات الغامضة فى المتن ، وهى ليست عسيرة التفسير . مثل ديوان الأبنية ص ٢١ ، بلاد لاون ، ص ١٣ ، الأبدال ص ١٢ ، ١٣ ، الريباس ص ٢٠ ، تزكلش ص ٢٨ ، الشبارة ص ٣٣ ، آدم اللون ، ص ٣٣ ، متقلدا هيكلا ص ٣٨ ، المطمورة ص ٥٦ ، عملة ابن الدخينة ص ٦٤ ، قاضى الفتيان ص ٦٩ ، كرفسارات ص ٦٩ ، البال القبرسى ص ٧٧ ، ٨١ ، جزيرة ليس ص ٧٩ ، خان الحسبة ببغداد ص ٨٨ ، الخلعيات ص ١٦٣ ، جماعة الحريرية ص ١٦٥ ، داوية ص ١٨٣ ، ستار القضايا ص ٢٠٣ .

وثانيها : أن بالكتاب — فضلا عن صفيف التصحيحات المطبعية الواردة بالصفحة المخصصة لذلك الغرض — أغلاطاً لعلها مطبعية أيضاً ، وهى على سبيل المثال لا الحصر :

ص			
٦	خمسمائية	وصحتها	خمسمائة
١٠	دار العميد	»	دار العبيد
١٤	مرعوباً	»	مرعوباً
١٨	ساثلا	»	سائلا
٣٠	انبهت	»	انتبهتُ
٣١	أو كمال قال	»	أو كما قال
٣٦	أبو ذكريا	»	أبو زكريا
٣٧	ودلاته	»	ولادته
٤٥	تل عقر	»	تل أعفر
٥٣	الخياصة	»	الحياصة
٦١	نهر الدخيل	»	نهر الدجيل
٦١	المهدى	»	ابن مهدى
٦٣	دلدوم	»	دلدرم

٩١	النوايح	وصحتها	النوائح
١٦٤	الصاجية	»	الصاحبة
٢٠٥	الترك	»	اليزك

وثالثها : أن فهارس الكتاب على ضخامتها وتنوّعها لا تفى بأغراض النشر الحديث ، إذ الإشارة إلى الصفحة الواردة بها ترجمة من التراجم لا تكفى للتدليل على ما لصاحب هذه الترجمة من أخبار وأعمال وعلاقات بالناس فى سائر الكتاب ، بل المعروف عند الباحثين أن كثيراً من الحقائق التاريخية الخاصة بالرجال — والنساء — لم توجد دائماً فى مظانها ومواضعها المنتظرة كالتراجم والوفيات . ثم إنه لا يوجد بالكتاب فهرس للألفاظ الاصطلاحية ، وهى غير قليلة ، وشرحها ليس بالأمر العسير ، مع العلم بأنه ليس بالأمر القليل الفائدة .

وبعد ، فليس من المعتاد فى النقد العلمى للكتب أن يفتتح الناقد بتناول المآخذ وإظهار الأخطاء ، فيؤجل تعداد المحاسن إلى آخر ما عنده من مقالة ، لأن ذلك إذا جاء عمداً أخرج النقد عن هدفه وغرضه . على أنى لا أريد التنقص ألبتة من قيمة هذا الكتاب أو من طريقة نشره ، بل أريد التنبيه على أخطاء النشر التى يرجع جزء منها على الأقل — فيما يبدو لى — إلى تهاون الناسخ لا الناشر ، وإهمال المطبعة لا الطابع ، لأنتهى من هذا العرض فى نغمة من الاستحسان والتقدير ، ولأدلل على ما بالكتاب نفسه من أهميات كثيرة . ومن هذه أخبار ينفرد أبو شامة بذكرها أو شرحها ، كقوله إن أحد الزنكيين — وهو عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى — دخل خدمة صلاح الدين الأيوبى ونزمه معظم حروبه (ص ١٣) ، وإن صلاح الدين كتب إلى ابن عبد المؤمن بشمال أفريقيا يستنجده على الصليبيين فلم ينجده لأنه لم يخاطبه فى كتابه بلقب « أمير المؤمنين » (ص ٦٠) ، وإن حملتين صليبيتين صغيرتين نزلتا على رشيد سنتى ١٢٠٤ و ١٢١٢ م (ص ٥٠) ، وإن فخر الدين جهاركس هو الذى ولى عمارة مدينة الفسطاط بعد أن أحرقها الوزير شاور (ص ٧٩). هذه كلها أخبار جديدة جديرة بتعديل المتواتر فى الكتب المتداولة . ومن هذه الأخبار كذلك أن بنى قتادة أمراء مكة كانوا يريدون الخلافة الإسلامية لأنفسهم دون العباسيين (ص ١٢٣) ، وأن خوارزم شاه الذى كان ترس الدول الإسلامية عامة ضد المغول فى القرن الثالث عشر الميلادى — لم يكن صديقاً للدولة العباسية فى بغداد أو

الدولة الأيوبية بالقاهرة فى كثير من الأحيان (ص ١٥٩) ، وأن لويس التاسع ملك فرنسا اختفى مدة بمنية عبدالله من ناحية شرمساح قبل أسره وسجنه بالمنصورة (ص ١٨٥) ، وهذا ما لم يذكره جوانفيل . ثم إن بالكتاب تراجم وافية لبضع شخصيات لا تزال تراجمهم فى حاجة إلى استكمال فى الكتب الحديثة ، ومن هذه ترجمة ذاتية (ترجذة ؟) لأبى شامة نفسه ص٣٧–٤٥ ، ثم ترجمة ابن الجوزى ص ٤٨ – ٤٩ ، واليونينى ص ١٢٥.

محمد مصطفى زيادة